الوقع الجمالي للمكان: مقاربة تحليلة لخماسية "مدن الملح" للروائي" عبد الرحمن منيف "

The aestheticeffect of the place: An analyticalapproach of the fifth parts of The novelist Abdul Rahman Munif" "cities of salt "

مطابس أمينة[1]، بن السايح الأخضر[2]

[1]مخبر اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات،جامعة عمار ثليجي، الأغواط،(الجزائر)
metabisamina19801971@gmail.com

[2]مخبر اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات،جامعة عمار ثليجي، الأغواط، (الجزائر)
l.bensayah@mail.lagh-univ.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/20 تاريخ القبول: 2022/09/07 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص: في هذه المقاربة التحليلية، نقف على الأثر الجمالي للمكان في الخماسية والتي من خلالها نستطيع القول أنها رواية مكانية بامتياز ، تحكي حكاية مكان ضائع تحول نعمة على الغريب ونقمة على أهله ..

شكّل المكان في رواية "مدن الملح" بأجزائها الخمسة حضورا متميزا لا يمكن الاستغناء عنه، خاصة إذا علمنا أن له دورا وظيفيا ينافس به بقية عناصرها.

كلمات مفتاحية: المكان ؛ الرواية ؛ مدن الملح ؛ الوقع الجمالي ؛ السرد.

Abstract: The place in the fifth parts“Cities of Salt”novel، constituteda vital and indispensable component because of its remarkable and special presence in the novel، plus the functional role that rivals the rest of its elements.

In this analytical approach we focus the aesthetic impact of the place in the novel which made it a distinctive and special one، telling the story of a lost place that turns to a blessing and grace on the Stranger but to a curse on the natives.

Keywords: The place; the novel; the cities of salt; the aesthetic impact; the narration

المؤلف المرسل: مطابس أمينة، **الإيميل:** metabisamina19801971@gmail.com

مقدمة :

ارتبط حضور الإنسان بالمكان منذ القدم،وقد تشكلت بينهما علاقة تأثر وتأثير، تحكمها الحتمية والكينونة، وبما أن الرواية هي في كثير من الأحيان انعكاس للواقع الذي نعيشه ، فلا عجب إذن أن يكون المكان أحد أهم عناصرها الأساسية في بنائها ، ولا عجب أيضا أن يكون المكان موضوع دراسة واهتمام الكثير من الباحثين والنقاد خاصة إذا علمنا أن المكان " ليس عنصرا زائدا في الرواية ، فهو يتخذ أشكالا ويتضمن معاني عديدة ، بل إنه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله"(حسن، 1990، صفحة 33)

وإن كان الأمر كذلك، فمن الطبيعي جدا أن يحظى بكل هذا الاهتمام من الدراسات، بحثا ونقدا، خاصة إذا علمنا أن له بعدا جماليا يتناسب وأدب الرواية.

إن المكان الروائي هو متخيل لغوي، يفرغ فيه الكاتب ما يريد إيصاله للمتلقي، وهذا الأخير بدوره يتمتع بالمشاركة في بناء هذا المكان في خياله، فيصبح بذلك " شخصية ومسافة مقياسها الكلمات ورواية غائرة في الذات الاجتماعية ، يتعدى كونه غطاء خارجيا ثانويا إلى وعاء يكتسب قيمته، كلما كان متداخلا مع باقي العناصر الفنية " (الشريف، 2010-1431، صفحة 193) فهو يعزز حضوره عندما يتفاعل مع الشخصية والزمان والحدث ... إلخ .

يظهر وقع المكان من الوهلة الأولى عند قراءة الرواية ، حيث تكلم الكاتب عن " وادي العيون " المكان الذي شهد انطلاق أحداث الرواية ، والتي تحول كل شيء فيها على ما أصبح عليه .

يقول الكاتب :" إنه وادي العيون ... ، فجأة وسط الصحراء القاسية العنيدة، تنبثق هذه البقعة الخضراء وكأنها انفجرت من باطن الأرضأو سقطت من السماء فهي تختلف عن كل ما حولها ، أو بالأحرى ليس بينها وبين ما حولها أية صلة ... " (عبد الرحمان، 2016، صفحة 9)

إنه التميز الذي يحدث في الصحراء القاحلة، إنه الاستثناء« إنها حالة من الحالات القليلة التي تعبر فيها الطبيعة عن عبقرتيها وجموحها وتبقى هكذا عصية على أي تفسير»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 9)

ثم يتكرر ذكر "وادي العيون" فيقول: «وادي العيون يبدو بنظر الذين يسكنون فيه مألوفا وبعض الأحيان لا يثير تساؤلات كبيرة، لأن هؤلاء تعودوا أن يروا أشجار

النخيل تملأ الوادي، وتعودوا أن يروا الينابيع تتفجر في أمكنة عديدة خلال فصل الشتاء ثم بداية الربيع، إلا أنهم، رغم العادة، يحسون أن قدرة مباركته هي التي ترعاهم وتيسر لهم الحياة...»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 9)

ثم ما يلبث أن يعاود ذكره في نفس الصفحة مرة أخرى «فكانت القافلة كلها تمتلئ نشوة أقرب إلى الرعونة، لكنها لا تلبث أن تسيطر على اندفاعها حيث ترى الماء متذرعة بحجة أن الذي خلق الدنيا والبشر خلق في نفس الوقت وادي العيون في هذا المكان بالذات ليكون إنقاذا من الموت في هذه الصحراء الملعونة»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 9)

ويضيف أيضا «وادي العيون بالنسبة للقوافل شيء خارق، أعجوبة لا يصدقها من يراه لأول مرة، ومن يراها لا ينساها بعد ذلك »(عبد الرحمان، 2016، صفحة 10)، «هذا الإلحاح عن ذكر وادي العيون يعني الكثير»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 10)، لو ترك لمتعب الهذال أن يتحدث عن وادي العيون لقال كلام لا يصدقه أحد.....»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 10)

وهكذا يتكرر ذكر مكان "وادي العيون" في أغلب صفحات الجزء الأول، حتى حين يغادروه إلى "موران" و"حران" وغيرها فإن ذكره يتكرر في كل مرة.

إنه المكان الذي صنعه الروائي "عبد الرحمن منيف" والذي أراد من خلاله، ومن خلال تكرار ذكره، أن يمرر رسائل للمتلقي ليبين بها أهمية الامتداد الروحي والتاريخي للمكان، فالمكان هو ميثاق بين الذات والواقع، ولا يمكن الفصل بينهما.

الكاتب هنا يحاولأن يرسخ وجود هذا المكان ، وأن ينأى به عن محاولة طمس وجوده في التاريخ ، من أجل ذلك كثف الكثير من المشاهد والصور التي «تمتلك من حدة الرؤية ، ما يوقف زحف الغياب والنسيان اللذين يكتسحان الأشياء القريبة والمألوفة ، كما أنها تثوي وقعا جماليا فريدا لنبض الحياة الذي جعل منيف يردد يوما : إن المدن هي البشر هي التاريخ ، وبالتالي فإنها الذاكرة الحقيقية لما كان ولما يجب أن يبقى»

فقد انسجم الأهالي بالوادي الذي عاشوا حول ضفافه «إن هذا الوادي في هذا المكان من الأرض لا غنى عنه، ولو لم يكن موجودا لما كان هناك بشر أو حياة، ولما كانت هناك طريق أيضا، ولما جاءت إليه القبائل وما كان لمتعب وقبيلته العتوم أن يعيشوا في هذا المكان من الأرض»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 11)

باختصار "وادي العيون" هو الحياة وفقدانه يعني الموت، فكل من البشر والطريق والقبائل ومتعب وقبيلته يساوون وادي العيون، ووادي العيون يساوي الحياة.

حتى أنهم عندما رحلوا عن الوادي كان ذلك بمثابة الإعلان عن الموت أو ما يشبهه، فقد أدرك فواز بشكل خاص، «إن ما حصل لهم ليس مجرد الرحيل عن مكان اسمه وادي العيون وليس خسارة من النوع الذي يستطيع الإنسان أن يألفه أو أن يتعود عليه، أدرك أن ما وقع فراق، يشبه الموت، وأن لا شيء، لا أحد يمكن أن يعيدهم إلى ما كانوا عليه»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 127)

« لذلك فقد أحس الجميع أن رحيلهم عن وادي العيون كان قاسيا عنيفا، مثل لطمة مفاجئة وقد ملأهم هذا الرحيل بشعور قاهر منذ الليلة الأولى في عجرة»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 127)

فعبارة « إذ ... »« جملة تشير إلى قادم غ... ي برحيل وشيك الحدوث ، ... موته ، وموت مفزع يسير ... »(فيصل، 2004، صفحة 226)هكذا ستكون حكاية مكان كان جنة فأصبح جحيما لا يطاق.

يقول الكاتب «في العجرة النقطة التي كانت تمر فيها القوافل عبر آلاف السنين»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 128)المكان الذي تكتشف فيه الذات لأول مرة ذوات أخر من نوع آخر يختلفون عن ما ومن عايشوه في "وادي العيون"، المكان الذي لا يزال وقعه يؤثر على سكانه «ولأول مرة يكتشفون أن الأماكن الأخرى والناس أيضا يختلفون بكثير عن وادي العيون»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 128)

كان كل مكان يصلون إليه، يزيد من ثقلهم أثقالا ويكتم على أنفاسهم، ويقبع على صدورهم، ففي الحدرة شعروا بأنها «المرة الأولى التي تبدو الأماكن معادية، وفيها ذلك المقدار الهائل من القسوة... فقد بدت لهم وجوه البشر في الأماكن التي مروا بها، قاسية صمّاء، وأحسوا أن طعم الماء الذي شربوه مالحاً وأقرب إلى المرارة»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 129) وبدأت الملوحة تتسرب إلى أجسادهم كما تسربت في بناء منشآتهم فاستحالت مدن ملح.

أحسّت ذواتهم بالضياع والقهر مما انعكس على إبلهم وحتى على طبيعتهم فقد «كانت رحلة مليئة بالحزن الصامت، الإبل تخبُّ في مشيها الرتيب، والشمس بعد شروقها

بوقت قصير تصبح عذابا لا يمكن أن يحتمل، أما محاولات الحديث والصخب، حين يتوقفون لجمع الحطب لإيقاد النار، لإعداد الطعام، فقد كان تعويضاً أخرق عن الكلام الذي يجب أن يدور بينهم»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 129)

إنها حالة من اليأس والتشاؤم، وكأن المكان يمارس عليه نوعاً من القهر والاستنكار، وكأنه يرفضهم، يستنكر وجودهم ومغادرتهم "لوادي العيون"، لأن الحياة في الوادي غير الحياة في الحدرة أو غيرها حتى الشتاء "في وادي العيون كان شيئا مختلفا فالمطر، أو انتظار المطر يحمل فرحاً من نوع نادر حتى لو تأخر في سنة من السنين فإن الناس لا يكفون يوما واحداً عن الانتظار...

حتى إذا جاءت تهللت الوجوه ونظرت العيون إلى العيون بطريقة تحمل معنى صدق الوعد... ومع المطر أيضا تتغير الحياة ويتغير الناس.

والليالي خاصة ليالي الشتاء في وادي العيون غيرها في الحدرة، تهبط الظلمة في الحدرة مبكرة، ومع تلك الظلمة برودة شديدة قاسية تولد حالة من الانقباض... لأن ليالي الحدرة هكذا فإن الناس تعودوا أن يأووا إلى فراشهم مبكرين، وأن تكون أحاديثهم قصيرة ولا تأخذ ذلك الذي يلهب الخيال ويفجر العواطف. لما كان يحصل في وادي العيون»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 168،169)

عند الوصول إلى "حران «كان النظر إلى البحر أول صدمة أثرت على تفكيرهم صدمتهم حتى الذهول، فذلك البدوي الذي أَلِفَ الصحراء، وتعود على المشي بخطى ثابتة على رمالها، وعلى وضوح كل شيء على سطحها فقد انبهر بمكان آخر كثير المياه إما أن يعرف التعايش معه أو يغرق فيه فيلتهمه هو ورماله «الماء غدّار يبلع ولا يشبع»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 192)

كان وقْع المكان الجديد شديدا جداً لأن «البحر خاصة لمن لم يره قبل يثير تساؤلاً مستمرا ويولد مخاوف لا يمكن التغلب عليها، فإذا ترافق ذلك مع القصص التي تروى وتلك التي يخترعها الخيال، فإن التساؤل عندئذ يصبح بدون إجابة...»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 193)

فالذين «جاءوا من الداخل، من أعماق الصحراء، تاهوا في دوامة التفكير والحيرة، بدوا شديدي القلق والخوف»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 193)

حدثت الصدمة الحضارية التي بها انكسر البدوي عند مشهد البحر، أنساهم ذلك صحراءهم الواسعة، واستبدلوا قصصهم التراثية بقصص البحار وما وراءها، كما استبدلوا سفينة الصحراء بسفينة البحار، وشيئا فشيئا تخلوا عن كل ما يمت بصلة

لمكانهم الأصلي منبهرين بالبحر، وبما يجلبه من بلايا «الذين جاءوا من الداخل، من أعماق الصحراء، تاهوا في دوامة التفكير والحيرة، بدوا شديدي القلق والخوف، وزاد الخوف وتعاظم حين اشترى ابن الراشد الجمال كلها، شعروا أنهم يواجهون حالة من العجز الكامل، وأنهم في هذا المكان المعزول عن العالم، والذي فقد حتى اسمه، مجموعة من الرجال المحاصرين لا يعرفون ماذا يجب أن يعملوا وماذا ستكون عليه الحياة في الأيام التالية، ولذلك استبدّ بهم القلق وانتابهم الوسواس، حتى الرغبة في الأكل لم يعودوا يشعرون بها»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 193)، ولا يزال الكاتب يصور وقع المكان على السكان والأهالي وعلى نفسيتهم فيقول «في هذا المكان النائي الذي وجدوا أنفسهم فيه في هذا المنخفض من الأرض حين كانت مجموعة بيوت طينية فقيرة، قريبا من البحر تتشكل الطبيعة على نحو لا تماثله أمكنة أخرى... في هذا المنخفض، والذي يشبه حضن الأم، وفي نقطة التقاء المياه باليابسة وعلى مسافة كافية من البحر... تكونت في يوم من الأيام تلك القرية الصغيرة والتي سمت نفسها أو سماها أحد الغرباء العابرين "حران"»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 196)

حران التي اختيرت كي تكون ميناء لتكون الباب المفتوح عن الآخر، ليصبح هذا ألأخير الآمر الناهي، أما الأهالي فهم مقهورون صامتون يعيشون في غربة في أوطانهم خصص لهم الجانب الغربي وكل ما يحمله الغرب من سلبيات من ظلمة وانخفاض ومساكن بسيطة...

أما الأجانب فلهم الجانب الشرقي المشرق المستنير والعالي، وتحول العرب إلى عمال للأمريكان على أرضهم، فَسُلب منهم ما فوق الأرض وما تحته، وخابت أمالهم يقول الكاتب أن «الذين فرحوا بالانتقال فقد شعروا بالخيبة لأن الهواء الذي كان يلعب بالخيام... والذي يصبح عذبا رقيقا في الليل المتأخر... وعند الفجر، لم يعدله وجود في هذه العلب التي تصبح كأنها الأفران الخانقة، حيث تعبق بالحرارة ورائحة العرق والنوم...»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 293)

إن الكاتب هنا لم يقصد أن تكون خيبة أمل متعلقة فقط بالسكنات، وإنما خيبة أمل أكبر من ذلك، فالخيام هي رمز الأصالة والبساطة والبداوة التي ألفوا العيش فيها ، استبدلوها بهذه العلب الحديدية التي انبهروا بها بادئ الأمر، ثم سرعان ما أدركوا حقيقتها، أدركوا أيما إدراك أنهم «في هذا المكان يعملون ويُقتلون في وقت واحد»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 301)، أسدل الحزن ستاره عليهم كما أسدل الليل ظلامه،

لدرجة أن «لا يتذكر أحد منهم أنه رأى القمر الذي كان يملأ السماء»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 304)

وشيئا فشيئا تغير المكان وتغير معه الناس و«بتوسيع الميناء وبناء هذه الشوارع تغيرت حران مرة أخرى: بدأت تصل بين يوم وآخر، بواخر صغيرة وكبيرة... ومع وصول كل باخرة جديدة تهتز حران، تمتلئ بالمخاوف، ترقب كل شيء وكل حركة من خلال عيون أطفالها ورجالها المسنين..»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 337)

و كذلك «بيت الإمارة ارتفع، وأصبح كبيراً عاليا على التل الشمالي، وإلى الشرق منه، على مسافة مائتين أو ثلاثمائة متر ارتفع بيت آخر هو بيت الأمير ويمكن لأي إنسان على الشاطئ، أو في أي مكان آخر من "حران" أن يشاهد البناءين وهما يرتفعان ويتكاملان يوما بعد يوم»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 338)، حتى ابن راشد قام ببناء بيت من«أعظم الأبنية من حران كلها، وربما في الأماكن الأخرى أيضا»(عبد الرحمان، 2016، صفحة 339)

وهكذا ارتفعت الأبنية واتسعت كما اتسعت الهوة بين الحكام وذوي النفوذ وبين الشعب المغلوب على أمره، وبذلك تغير المكان، وتغيرت أحوال الناس وحتى القيم أصابها ما أصاب غيرها، لقد تغير كل شيء لـمّا تغير المكان، وأُضيفت أشياء وأسماء عليه وتغيرت مبادئ وأخلاقيات المجتمع، حتى عندما وفد الغريب الذي أصبح اسمه الحكيم استبدل وبكل بساطة بطبيب القرية "مفضي الجدعان"، تنكروا له كما تنكروا من قبل لقيمهم ومبادئهم دون رحمة.

عندما تغير المكان تغيرت معه الخيام، وتحولت إلى "بركسات" وأبنية يتنافسون في بنائها، بل يتنافسون مع الأمريكان الغرباء، ويقلدونهم فيها، حتى "موران" التي كانت مدينة «بعيدة منسية»(عبد الرحمان، مدن الملح ، الأخدود، 2016، صفحة 24) مسها هذا التغيير الجذري الذي أثر هو بدوره على سكانها وكان ما يحدث لها وما تشعر به هذه المدينة يشعر به سكانها، ويتشاركون نفس المشاعر والانطباعات في موت السلطان "خربيط" مثلا بدت «موران في حالة أقرب ما تكون إلى الانتظار والتوقع والناس فيها ينظرون أو يتوقعون شيئا، لكنهم لو سئلوا أي شيء ينتظرون أو يتوقعون فإنهم لا يملكون جوابا»(عبد الرحمان، مدن الملح ، الأخدود، 2016، صفحة 26)

إن الانتظار والترقب والصمت، لطالما كان السنفونية التي يرددها المكان في "مدن الملح" لقد أصبح إيقاعاً يتقاسم لحنه المكان مع الأهالي في كثير من الأوقات.

حتى أول قدوم لباخرة الشيطان أو سفينة العفاريت وانصدام العمال بما رأوه فعندما «أخذتهم تلك الغفوات القصيرة ما لبثوا أن هبوا فزعين بعد أن طاردتهم الأطياف وملأتهم بالرغبة واللذة والخوف والانتظار»(عبد الرحمان، مدن الملح ، التيه، 2016، صفحة 225)

الانتظار الذي يتشارك فيه المكان والإنسان فقد «بدت موران في تلك الأيام المبكرة من فصل الربيع غارقة في الصمت والانتظار والتأمل، وكأنها لا تنتظر شيئا، لكنّ العين النافذة المدققة ترى في صمتها انتظاراً أو بقية من ترقب وترى في هذا الكون حذراً مخادعاً، إذ لابد أن ينتهي فجأة وكأنه لم يكن، لذلك ودون اتفاق أو تدبير شارك الجميع في هذا الصمت» (عبد الرحمان، مدن الملح ، الأخدود، 2016، صفحة 7)

وجدير بالذكر هنا أن نشير إلى أن تغير الناس في مستويات عدة بسبب تغير الأمكنة ، لخير دليل على أهمية المكان التي تتلخص في أنه « الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، ولذا فشأنه شأن أي نتاج اجتماعي أخر يحمل جزء من أخلاقية وأفكار ووعي ساكنيه»(النصير، 1986، صفحة 16،17)

حتى في ديار الغربة لازمهم الصمت وكأن الأشخاص تبعتهم لعنة المكان فأطبق عليه الصمت «وغرق قصر بادن بادن وغرقت الفيلات الثلاث في الصمت»(عبد الرحمان، مدن الملح ، المنبت، 2016، صفحة 233)

ولا يزال إيقاع المكان يؤثر على الذات والأحداث وكلما تبدل وتغير انعكس ذلك على الشخصيات فيشعرون بالضياع نتيجة هذا التعالق والتعلق بالمكان المألوف الذي يتحول إلى مكان آخر، من ذلك مثلا عندما «رحّلوا سوق الحلال إلى العوالي، ولم يعد الناس يهتمون بالخيل والإبل، ولم تعد الرعايا تعبر هذه الصحراء كلها لتصل إلى موران، وإنما يأتيها اللحم مذبوح من أقاصي الدنيا، وحَلَّت السيارات محل الأباعر»(عبد الرحمان، مدن الملح ، الأخدود، 2016، صفحة 384) أثر ذلك كثيراً على "شمران" العارف بالخيل، انعكس ذلك سلبا عليه وعلى نفسيته «فقد أحس بالهرم والتعب قبل أن يهرم، وقبل أن يتعب، ولذلك اكتفى بقهوة زيدان في شارع القاضي...»(عبد الرحمان، مدن الملح ، الأخدود، 2016، صفحة 284)، دفعه ذلك إلى التساؤل في حديث دار بينه وبين نفسه معبراً عن استيائه من الوضع الذي آل إليه «حتى هؤلاء البدو الذين كان يعرف بعضهم في سوق الحلال تغيروا الآن أين إبلهم وأغنامهم ولماذا أصبحوا هكذا؟ وإذا كانوا بهذا الشكل الآن فكيف سيكونون غداً؟»(عبد الرحمان، مدن الملح ، الأخدود، 2016، صفحة 284)

فالمكان عند "شمران" يعني حضور الذات وفقدانه يعني فقدان الذات

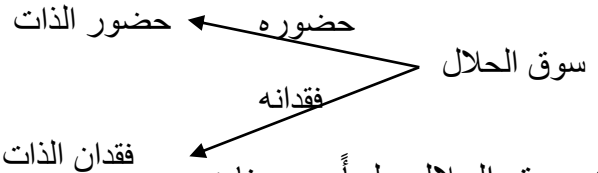

«كان سوق الحلال ملجأً وحصنا لـ الذين يريد ولا يريد»(عبد الرحمان، مدن الملح ، الأخدود، 2016، صفحة 285)

وهذا ما يوضح العلاقة الجدلية بين المكان والشخصية « فالمكان يعكس حقيقة الشخصية ومن جانب أخر ، إن حياة الشخصية تفسرها طبيعة المكان الذي يرتبط بها »(سيزا، 2004، صفحة 118،119)

و لطالما كانت المدن في أغلب روايات "عبد الرحمن بن منيف " معادية لشخصياتها ، فهي« تعتبر مكان من أمكنة اللعنات الشيطانية ، وهذا الاعتبار يذكرنا باعتبار "دوستويفسكي" للمدينة التي تعتبر في عرفه عدوة للإنسان ، كما أنها عدوة للرواية »(النابلسي، 1994، صفحة 30)

ومثلما داست أقدام التغيير على "شمران" وعلى المكان، راح ضحية ذلك أيضا "صالح الرشدان" ودفع ثمن تغيير سوق الحلال، يتساءل الكاتب مبينا حقد "صالح الرشدان" الذي ما كان يعرف صنعة سوى حذو الحمير ولكنها استبدلت بالسيارات نتيجة التطور الذي فُرض على المنطقة « هل يمكن لمدينة أن تعادي إنسانا مثلما فعلت موران مع صالح الرشدان؟ وهل يوجد إنسان غير صالح الرشدان قادر على أن يوزع هذا المقدار الهائل من الشتائم... على مدينة بأسرها في محاولة للانتقام؟»(عبد الرحمان، مدن الملح ، الأخدود، 2016، صفحة 391)، وأصبح موضع سخرية لأبناء موران بعدما كانوا يعتمدون عليه كل الاعتماد وكان يرد عليهم في لحظات استفزازه بكلمات ينتقدهم بها حيث يقول «والله يا أهل موران حميركم أحسن منكم؟ ويوم ما كان عندكم غير الحمير كنتم بشر وأوادم وأما هالحين فأنتم زق». ويقول «حذي الحمير من رجليها، أما الحمير اللي أشوفها هالحين فينراد لها حذي من روسها»(عبد الرحمان، مدن الملح ، الأخدود، 2016، صفحة 392)

إن المكان الذي كان فيه رزقه وحرفته التي مارسها أربعين سنة ولكن لما تحول وتغير وتبدلت الأحداث، أصبح عاطلا عن العمل، بل أكثر من ذلك أصبح سخرية عند بني جلدته، وكل ما سبق يدفعنا إلى الوصول إلى نتيجة واحدة دائما تكاد تكون قاعدة وهي إن ثبوت المكان يعني ثبوت الشخصية والذات لأنّ المكان هو روح تلك الشخصيات التي تعيش فيه وضياعه أو تغييره أو التهجير منه يعني فرض الفوضى على شيء مستقر، وتصدع ثوابت المجتمع.

هذه الرتابة أو اللازمة تقريباً تنطبق على أغلب الشخصيات التي ترمز للبداوة والأصالة وإيقاع المكان يفرض الآتي:

استقرار المكان يؤدي إلى استقرار الذوات

عدم استقرار المكان ← يؤدي إلى عدم استقرار الذوات

فالمكان فيما مضى عندما كان بسيطاً متواضعاً كان يحتضن سكانه كما تحتضن الأم أبناءها، ولكن عندما كبر وتغير ولفظهم كما تلفظ أمواج البحر ما يوجد بداخلها، وربما هذا ما عبّر عنه الكاتب لما قال «وإذا كان لكل قرية ولكل مكان ذاكرة وقلب، فإن المدن الكبيرة خاصة التي تتكون وتتغير بسرعة، تفقد ذاكرتها وتتعلم القسوة بإتقان، ولذلك فإن كانت موران قد عرفت صالح فيما مضى من أيام ، وأحبت شتائمه وطريقته في التعامل، فإنها ما لبثت أن تجاهلته ثم نسيته حتى عندما مات له طفل ابن عامين لم يجد أحداً يساعده أو يمشي معه...»(عبد الرحمان، مدن الملح ، الأخدود، 2016، صفحة 396،397)

ويتواصل إيقاع المكان مشاركاً في أحداث الرواية وإن حضوره يصنعها ويفعِّلها، حتى قد ينوب عن الشخصيات، أو بالأحرى يصبح هو شخصية من هذه الشخصيات فمثلا في قصر "بادن بادن" عندما بلغ عزل السلطان «أخذ القصر يغرق في الصمت والعزلة، وكثيراً ما غرق في الظلام أيضا، فالأنوار لا توقد إلا في وقت متأخر، ولا تطفأ حتى بعد أن تملأ أضواء الشمس الكون كله، لأن لا أحد يفطن إلى ذلك، أو لديه الرغبة في أن يفعل»(عبد الرحمان، مدن الملح ، المنبت، 2016، صفحة 32)

رمى القصر بثقله، وغرق هو ومن يسكنه في الظلام وأخذت الغربة تفعل فعلتها في أصحابها وزادت من وحشتهم وحشة.

وفي المقابل صورة مكان آخر يعبر عن ما يحدث فيه وما يدور بين ساكنيه، إنها "موران" لطالما كانت تترقب تنتظر تشارك أهلها «موران قلقة بل منزعجة من النشاطات المعادية والتحريضية التي تتم في بادن بادن، وتعتبر هذه النشاطات غير

الودية بمثابة موقف عدائي تجاهها الأمر يضطرها إلى اتخاذ موقف مقابل...»(عبد الرحمان، مدن الملح ، المنبت، 2016، صفحة 46)

إن المكان يفرض نفسه على الشخصيات ويعرف بإيقاعه على نفسيتها فكما تنكر السلطان "الموران" ولبني جلدته ببطشه وجبروته وأنانيته تنكرت له بادن بادن أيضا عندما وطأها، فأصبح غريب الجسد والروح، لم يسمح له بالعودة ولا بالبقاء، ففاضت روحه.

كان السلطان شديد التقلب والتغير ويسهر كثيراً حتى وصل إلى علم اليقين إلى أن الوطن لا يستبدل بشيء آخر، وأصالة الإنسان لا تقدر بثمن يقول: «هذه مورانا صغيّرة يا جماعة الخير، ومهما حاول الواحد أن يغيّر أصله أو يلبس هدوم غيره، ترى ما يخفى، إذا ما بيّن أول يوم، ينكشف بالثاني وبعدها ما يقدر يرفع رأسه، ولا يقدر يناظر الناس»(عبد الرحمان، مدن الملح ، المنبت، 2016، صفحة 219)

لقد استوحشت الشخصيات التي انبهرت في بادئ الأمر بالطبيعة الألمانية، وأصبحت هذه الأخيرة تعكس سلبيتها عليها، فتلك الخضرة التي أعجب بها السلطان ورجاله أول ما وصلوا، بمجرد حلول الشتاء «انهارت دفعة واحدة وغادرت تماما، فقد تكشف المحيط عن خواء أقرب إلى الفوضى، تأمل الرجال، من وراء نوافذ مغلقة، هذا الذي حدث فجأة، فتبدت لهم الأشجار المنتصبة بلونها الإسمنتي القاسي، وكأنها لم تكن خضراء في يوم من الأيام! وأشبه ما تكون بالأنابيب المقشورة، والتي يتراوح لونها بين الأزرق المقتول والرمادي الكامل، مع مقدار كبير من البني المغيّر أو المتسخ. ومع أنهم حزنوا: تبقى أشجاراً وتبقى أشجاهم، وتذكروا الأشجار في الأماكن الأخرى، وفي موران بالذات صحيح أنها لم تكن بهذه الخضرة ولا بكثافة الأوراق، لكنها لا تستسلم هكذا، أما حين تذكروا النور هناك فقد أحسوا أنهم تحولوا إلى شموع سوداء، أو إلى أعمدة من رماد»(عبد الرحمان، مدن الملح ، المنبت، 2016، صفحة 238،239)

إن هذا يعد « تراسلا رمزيا بين الحالة النفسية والانفعالية للشخصية والمكان فتأخذ الأماكن دور المرايا العاكسة للكوامن النفسية ، وصراعاتها الداخلية إزاء الأحداث لتصبح الأوصاف الملاصقة لهذه الأماكن في بعض مراحل السرد تعادلات رمزية ذات دلالة »(علي حسانين، صفحة 32)

يستغرق الكاتب في ذلك الوصف لصدق المشاعر التي كانت تشعر بها الشخصيات المتغرّبة، لا أحد يستطيع أن يُنكر الإيقاع الحزين الذي عزفه المكان الغريب عليها، لدرجة أنه يصبح صورة عاكسة عن صورة المنفى «المنفى... المكان البارد الموحش

الذي يشعرك دائما أنك غريب، زائد، وغير مرغوب فيه، المكان الذي تفترضه محطة، أو مؤقتا، فيصبح لاصقاً بك كالعلامة الفارقة، وربما لأنه مؤقت يصبح وحده الأبدي، كالقبر لا يمكن الهروب منه أو مغادرته

حتى الفرح والمسرات الصغيرة، وأيضا الانتصارات العابرة أو الموهومة، إن لها في المنفى مذاقا مختلفا: إنها ليست لك، إنها مؤقتة، هشة، وتتحول بسرعة إلى حزنٍ كاوٍ، وإلى بكاء لا يعرف التوقف، أما كيف تذوب وتتراجع كالحلم، ولا تشبه مثيلاتها التي تحدث في الوطن، فإن في الأمر سراً يستعصي على الفهم أو التفسير»(عبد الرحمان، مدن الملح ، المنبت، 2016، صفحة 205)

الخاتمة :

وفي الأخير نقول إن الوقع الجمالي للمكان في خماسية "مدن الملح" قد كان له صدى على جميع عناصر الرواية بكل أجزائها، ولا يمكن لنا أن ننكر أهمية المكان فيها، حيث أن المكان كان له تأثير عميق في استقطاب قراء ونقاد الرواية، والجدير بالذكر أن الروائي عبد الرحمن منيف شخص من خلال المكان أزمة أمة وحكاية مكان ،كما أن تفعيله له ساعد في تطور الأحداث وتغيرها ، زد على ذلك أن جمالية المكان تجسدت من خلال علاقة التأثر والتأثير بينه وبين شخصيات الرواية فهو نقطة البداية والنهاية، ونقطة التحول، وبسببه كانت الرواية.

قائمة المصادر و المراجع :

- **المصادر :**

1- عبد الرحمن منيف ، مدن الملح ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر – دار التنوير للطباعة والنشر ، ط15 ، 2016 .
أ/ التيه ب/ الأخدود ج/ المنبت

- **المراجع :**

1- حسن بحراوي ، بنية الشكل الروائي (الفضاء – الزمن – الشخصية) ، المركز الثقافي العربي ، ط 1 ،1990 .
2- د.سيزا قاسم ، بناء الرواية ، دراسة مقاربة في ثلاثية نجيب محفوظ ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، 2004 .
3- الشريف حبيله ،بنية الخطاب الروائي ،دراسة في روايات نجيب الكيلاني ،عالم الكتب الحديث ،الأردن، ط1، 1431ه-2014م

4- شرف الدين ما جدولين ،الصورة السردية ،في الرواية والقصة والسينما،منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون ،ط1، 1431ه 2010م
5- شاكر النابلسي ،جماليات المكان في الرواية العربية المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ط1 ، 1994
6- د 'فيصل دراج ،الرواية وتأويل التاريخ ،نظرية الرواية والرواية العربية ،المركز الثقافي العربي المغرب ،ط1 ،2004م
7- محمد مصطفى علي حسانين ،استعادة المكان ،دراسة في آليات السرد والتأويل –رواية (السفينة)لجبرا إبراهيم جبرا
www.kotob Arabia.com
8- ياسين النصير ،الرواية والمكان الموسوعة الصغيرة ،سلسلة ثقافية دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد ،وزارة الثقافة والإعلام 1986.

الهوامش

بحراوي حسن. (1990). *بنية الشكل الروائي (الفضاء ، الزمن ، الشخصية)* (الإصدار 1). المركز الثقافي العربي.

حبيلة الشريف. (1431-2010). *بنيةالخطاب الروائي و دراسة في روايات نجيب الكيلاني* (الإصدار 1). الأردن: عالم الكتاب الحديث.

دراج فيصل. (2004). *الرواية و تأويل التاريخ ، نظرية الرواية والرواية العربية* (الإصدار 1). المغرب: المركز الثقافي العربي.

شاكر النابلسي. (1994). *جماليات المكان في الرواية العربية* (الإصدار 1). المؤسسة العربية للدراسات و النشر.

عبد الرحمان م. (2016). *مدن الملح ، الأخدود* (15 ed.). المؤسسة العربية للدراسات و النشر دار التنوير للطباعة والنشر.

قاسم سيزا. (2004). *بناء الرواية ، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ*. مهرجان القراءة للجميع مكتبة الأسرة.

محمد مصطفى علي حسانين. (بلا تاريخ). *إستعادة المكان دراسة في أليات السرد و التأويل* . مصر.

منيف عبد الرحمان. (2016). *مدن الملح ، التيه* (الإصدار 15). المؤسسة العربية للدراسات و النشر دار التنوير للطباعة و النشر.

منيف عبد الرحمان. (2016). *مدن الملح ، المنبت*. المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، دار التنوير للطباعة و النشر.

ياسين النصير. (1986). *الرواية و المكان ، الموسوعة الصغيرة*. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة ، وزارة الثقافة و الإعلام.